

- أبو حامد الغزالي، المتوفى سنة 505 هـ، ومن كتبه: إحياء علوم الدين، الأربعين في أصول الدين، منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين، بداية الهداية، وغيرها الكثير. ويعد كتاب إحياء علوم الدين من أشهر -إن لم يكن الأشهر- كتب التصوف ومن أجمعها.

وشهدت الصوفية بعد جيل الجنيد قفزة جديدة مع الإمام الغزالي خاصة كتابه إحياء علوم الدين محاولة لتأسيس العلوم الشرعية بصياغة تربوية، تلاه اعتماد الكثير من الفقهاء أبرزهم عبد القادر الجيلاني للصوفية كطريقة للتربية الإيمانية، ويبدو أن الجيلاني وتلاميذه الذين انتشروا في كافة بقاع المشرق العربي حافظوا على الجذور الإسلامية للتصوف بالتركيز على تعليم القرآن والحديث مقتدين بأشخاص مثل الحارث المحاسبي، والدليل على ذلك أن حتى ابن تيمية رغم الهجوم الضاري الذي يشنه على الصوفية في عصره، لا يرى بأساً في بعض أفكار التصوف ويمتدح أشخاصاً مثل الجيلاني وأحمد الرفاعي. وينسب المؤرخين لهذه المدارس الصوفية المنتشرة دوراً كبيراً في تأسيس الجيش المؤمن الذي ساند صلاح الدين في حربه ضد الصليبيين.

ظهور التصوف كطرق ومدارس:

يرجع أصل الطرق الصوفية إلى عهد رسول الإسلام محمد بن عبد الله ﷺ عندما كان يخصّ كل من الصحابة بورد يتفق مع درجته وأحواله:

فأما الصحابي أبو بكر، فقد أخذ عنه الذكر بالاسم المفرد (الله).

وأما الصحابي علي بن أبي طالب، فقد أخذ من النبي الذكر بالنفي والإثبات وهو (لا إله إلا الله).

ثم أخذ عنهما من التابعين هذه الأذكار وسميت الطريقتين: بالبكرية والعلوية. ثم نقلت الطريقتين حتى التقتا عند الإمام أبوالقاسم الجنيد. ثم تفرعتا إلى الخلوتية، والنقشبندية. واستمر الحال كذلك حتى جاء الأقطاب الأربعة السيد أحمد الرفاعي والسيد عبد القادر الجيلاني والسيد أحمد البدوي والسيد إبراهيم الدسوقي وشيّدوا طرقهم الرئيسية الأربعة وأضافوا إليها أورادهم وأدعيتهم. وتوجد اليوم طرق عديدة جداً في أنحاء العالم ولكنها كلها مستمدة من هذه الطرق الأربعة. إضافة إلى أوراد السيد أبو الحسن الشاذلي صاحب الطريقة الشاذلية والتي تعتبر أوراده جزءاً من أوراد أي طريقة موجودة اليوم.

مصادر التصوف الإسلامي:

كان التصوف عند أول تكوّنه العلمي أخلاقاً دينية، فمن الطبيعي أن يكون مصدره الأول إسلامياً، فقد استمد من القرآن، والسنة، ومن أحوال الصحابة وأقوالهم. على أن أحوال الصحابة وأقوالهم لم تكن لتخرج عن نطاق الكتاب والسنة، وبذا يكون المصدران الأساسيان للتصوف في الحقيقة: القرآن، والسنة.

ولا يستطيع إمامٌ ما في التصوف أو غيره، أن يختلف مع الصوفية في أن الله تعالى ذكر في القرآن الكريم الصادقين والصادقات، والقانتين والقانتات، والخالصين والخالصات، وكذا المتوكلين والأولياء والأبرار والمقرّبين؛ مما نجد مبثوثاً في آيات الكتاب الكريم. وقد ذكر الله تعالى الشاهدين في قوله: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:37]، وذكر سبحانه المطمئنين في قوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:28]، وذكر سبحانه وتعالى تزكية النبي ﷺ

لأمته، في قوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة:2].

والتزكية لمحّة صوفية، تتم بعلم وعمل ومتابعة، وهي أيضاً تخلية بالفضائل وتخلية عن الرذائل، هذا إلى التأمل في جمال الكون ومحاولة كشف شيء من أسرارهِ. ومن هنا استنبط مفكر مثل الأستاذ العقاد ما للتصوف من صلة بالدين الإسلامي، حيث يقول: «... لكن التصوف في الحقيقة غير دخيل في العقيدة الإسلامية».

فمن القرآن والسنة استمد الصوفية أول ما استمدوا من آراءهم في الأخلاق والسلوك، ورياضاتهم العملية التي اصطنعوها من أجل تحقيق هدفهم من الحياة الصوفية.

وقد بين لنا الطوسي في (اللمع): أن للصوفية تخصيصاً بمكارم الأخلاق، والبحث عن معالي الأحوال وفضائل الأعمال اقتداء بالنبي ﷺ وصحابته ومن تبعهم، وهذا كله على حد تعبيره - موجود علمه في كتاب الله عز وجل. أما (الأحوال) فهي: ما يجلب بالقلوب، أو تخل به القلوب، من صفاء الأذكار. وليس الحال - كما يقول الطوسي - من طريق المجاهدات والعبادات كما ذكرنا.

ومن أمثلة الأحوال عندهم: المراقبة، والقرب، والمحبة، والخوف، والرجاء، والشوق، والأنس، والطمأنينة، والمشاهدة، واليقين، وغير ذلك.

وقد فرق الصوفية بين: (المقام) و(الحال) تفرقة دقيقة. ف: (المقام) عندهم يتصف بالثبوت. أما (الحال) فزائل.

والمقام يحصل للسالك بكسبه وإرادته، على حين أن الحال وارد عليه دون تعمد منه.

وإلى هذا يشير القشيري في رسالته بقوله: الحال معنى يرد على القلب من غير تعمد منهم - أي: من الصوفية -، ولا اجتلاب، ولا اكتساب لهم من طرب أو حزن أو بسط أو قبض أو شوق أو انزعاج أو هيبة أو احتياج. فالأحوال: مواهب، والمقامات مكاسب. والأحوال تأتي من عين الجود، والمقامات تحصل ببذل المجهود. وصاحب المقام ممكن في مقامه، وصاحب الحال مترق عن حاله.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابو العلا عفيفي، التصوّف، الثورة الروحية في الإسلام، دار المعارف، مصر، ط 1، 1963.
- الطّوسيّ، اللّمع في تاريخ التصوّف الإسلامي، صحّحه مصطفى الهنداوي، دار الكتب العلميّة، بيروت.
- محمّد الكلاباذي، التعرّف لمذهب أهل التصوّف، تحقيق محمود النواوي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط 1.
- الموسوعة الفلسفية المختصرة، مترجمة من الإنجليزية بإشراف زكي نجيب محمود دار القلم بيروت.
- معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، د. أحمد زكي بدوي، مكتبة لبنان - بيروت.
- السهروردي، عوارف المعارف، مطبوع على هامش "إحياء علوم الدين" للغزالي، عالم الكتب، دمشق.
- قصة الفلسفة الحديثة، أحمد أمين، وآخر، لجنة التأليف والنشر - القاهرة.
- جامع الرسائل المجموعة الأولى، ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، مطبعة المدني - القاهرة.
- المنقذ من الضلال، لأبي حامد الغزالي دراسة د. عبد الحليم محمود، دار الكتاب اللبناني بيروت ط. 1979م.
- محمد فاروق النبهان، مبادئ الفكر الصوّفي، مكتبة دار التراث، حلب، ط 1، 2005.